

التفكير في حال ومال من ملك الدنيا

..... لا شك عباد الله أن التفكير قد يراد به تأمل هذه الحياة وما فيها وقد ينطبق على التأمل لما بعد الموت. فأما التفكير في هذه الحياة فيعود مثلاً إلى أن الإنسان يتفكر في الدنيا وتقليلها فيعلم أنها ليست بدار قرار فيجعل زاده فيها زاداً آخر ولا، إذا تذكر أنه قد ملك الدنيا ملوك قد تجربوا وتكلروا وقالوا: من أشد منا قوة، وأخبر الله تعالى ببعض أعمالهم قوله: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبُتوْنَ وَتَخْدُونَ مَصَانِعَ لَعْلَكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ } فهل بقي هؤلاء؟ وهل خلدو؟ مكتوا قليلاً من الزمان، ثم عتوا وبغوا وطغوا وتجبروا، فأرسل الله عليهم العذاب.

أرسل الله عليهم رحباً صرضاً في أيام نحسات سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً. كذلك أيضاً يتفكرون في قوم هود الذين هم عاد وفي قوم صالح الذين هم ثمود وفي قوم شعيب وفي الأمم الذين قص الله تعالى علينا أخبارهم، وكيف كانت نهايتهم، وكيف كان أمرهم وبأي شيء هلكوا وعديبوا وبأي ذنب عذبوا. وهذا أيضاً يتذكر ويتفكر فيمن كان عنده أموال طائلة ولم تغرن عنه شيئاً كما ذكر الله عن قارون وكيف أن الله خسف به ويداره الأرض، مما كان لهم فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وكيف قص الله علينا أيضاً خبراً سباً وما كانوا فيه حيث كانوا في نعيم عظيم، ثم أهلكهم الله تعالى وأرسل عليهم سيل العرم وهكذا القصص المقدمة. كذلك أيضاً يتذكر القصص الجديدة في هذه الأمة. يتذكر أن هناك في هذه الأمة من تملعوا وتقديموا في الدنيا وعملوا وتصرفوا؛ ولكن أين هم؟ ما بقي منهم إلا أخبار وآثار. تلك آثارنا تدل علينا، فانظروا بعدها إلى الآثار ما بقي إلا أخبارهم. فإن كانوا صالحين مدحوا بما أصلحوه من الأعمال، وإن كانوا غير ذلك ذموا ونوجوا السب والذم إليهم هذا على الألسن، وأما في الآخرة فالامر فيهم إلى الله سبحانه وتعالى، فقد اعتنى علماء الأمة بأخبار ما بدأ أو أخبار هذه الأمة وكتبوا تراجم مطولة أو مختصرة عن أفراد من اشتهروا بشيء من الأعمال أو نحوها، وكذلك أيضاً أطالوا في بحثهم في كتاباتهم عن العجائب والأمور العجيبة التي حدثت في هذه الفرون كلها لماذا؟ لماذا كتبوا هذه التواريخ وكتبوا هذه الواقع وكتبوا لنا هذه الأخبار؟ لا شك أن فيها عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن يريد أن يتذكر. فأولاً: نعرف كثرة من ملك الدنيا قبلنا وأنه ملكها أخيار وأشرار كما ذكر في بعض الآثار: أن الذين ملكوا الدنيا من أولها إلى آخرها أربعة: مسلمان وكافران، فأما المسلمين فذكروا سليمان وذا القرنين وذلك لأن سليمان سخر الله له الريح تجري بأمره رحاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر. أي أنها إذا سارت من أول النهار إلى وسط النهار قطعت مسيرة شهر، وفي آخر النهار رواحها أي بعد الزوال إلى الليل مسيرة شهر تسير به هذه الريح، فسخر الله تعالى له هذه الريح وقالوا: إنه امتد ملكه وأنه دانت له البلاد سواء مؤمنهم أو كافرهم، وإن كان في ذلك توقف. أما ذو القرنين فقص الله تعالى علينا خبره، وذكر أنه {فَأَثْبَغَ سَبَّاً حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ السَّمَاءِ وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةً } إلى آخر ما ذكر الله، ثم رجع حتى بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم إلى آخر ما ذكر الله. لا شك أن هذا الدليل على أن الله مكن له في الأرض حتى بلغ مشرق الأرض ومغربها الله أعلم بكيفية مسيره إلا أن الله ذكر أنه قال لما قال الله تعالى له: {إِنَّمَا أَنْتُ عَذَّبَتْ وَإِنَّمَا أَنْ تَنْجَدَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مِنْ ظُلْمٍ فَسَوْفَ تُعَذَّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ قَيْعَدَةً عَذَّابًا نُكَرًا وَأَمَّا مَنْ أَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَرَاءُ الْحُسْنَى } . ذكرنا أيضاً عن النبِرِود أنه كان أيضاً تتمكن في الأرض، وأنه ملك مشرقاً وغرباً وامتحن إبراهيم فقال له إبراهيم {رَبِّيَ الَّذِي يُخْبِي وَيُبَيِّنُ قَالَ أَنَا أَخْبِي وَأَمِينُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ قَاتِلُهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِيْهِ الَّذِي كَفَرَ } فقالوا: إنه ملك نحو أربعين سنة ومع ذلك لم يبق له إلا الأخبار السيئة التي يذم بها، وكذلك أيضاً ذكروا ومن ملك الدنيا بخنصر الذي تسلط على أهل الأرض وسامهم سوء العذاب، وقتل خلقاً كثيراً من استولى عليه. لا شك أن هؤلاء كلهم قد انقضت حياتهم وانقطعت تصرفاتهم وما بقي إلا أخبارهم، إن كانوا أهل خير ذكروا بالخير وإن كانوا أهل سوء أو شر ذكروا بالشر والعياذ بالله، فنقول: على الإنسان الذي يريد أن يتذكر أن ينظر في كتاب الله تعالى ويتعقل ما حكاه الله وما بينه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من هذه الأخبار العظيمة ومن هذه الأمور والعجبات، وكذلك أيضاً ينظر فيما جاء في كتب التاريخ وما ذكر فيها من الأخبار والعجبات وكيف تقبلت الأمور وتصرفت فيعرفوا تصرف الدنيا وتقليلها بأهلها وأهاها كما قال بعضهم: هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من سفكى وفتكي فلا يغرركم طول ابتسامي فقولي مضحك والفعل ممكي فإذا خذ عبرة وموعظة من هذه الحياة ويستعد للموت وما بعد الموت . س: هل يصح الاستدلال بالآثار الواردة في كتاب العظمة إذا كانت آثاراً ضعيفة؟ يتسامح العلماء في الأحاديث التي فيها مواضع أو فيها قصص أو فيها تذكرة، ولو كانت أساساتها ضعيفة، فيستدل بها على ما دلت عليه، ولكن إنما يتشددون في الأحكام كما روينا عن الإمام أحمد أنه قال: إذا رأينا في الموعظ تساهلاً، وإذا رأينا في الحال والحرام شدداً في الأسانيد. الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. مِنْ بَنِي آدَلَةٍ وَأَحْوَالٍ مِنَ الْتَّفَكُرِ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ آثارِ التَّذَكُّرِ فَالْتَّفَكُرُ: هو التأمل والتعقل، والتذكرة: هو التأمل والتعقل، والتذكرة: هو ذكر الشيء الذي يكون له تأثير في الذاكرين، وقد أمر الله تعالى بالتنذير وبالتفكير فتكثر الآيات التي فيها قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَرٍ لِّقَوْمٍ يَتَعَكَّرُونَ } وكذلك قوله في الآيات: {أَوَلَمْ يَتَعَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَحَلَّ مُسَوِّيًّا وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُلْقَاءُ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } وكذلك الآيات التي فيها الأمر بالتنذير في قوله: {ذَلِكُمْ وَصَاحِبُكُمْ بِهِ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ } . وقد كثر كلام السلف رحمهم الله تعالى في التفكير، فتارةً يتفكرون في عجائب المخلوقات الآيات التي نصبهما الله تعالى دالة على عظمته وأمر بالتفكير فيها "أَفَلِمْ يَتَفَكَّرُوا فِيمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ" يعني: يلتفت أنظارهم إلى أن يسيروا في الأرض وينظرلوا فيها نظر عبرة ونظر عطة، وذلك ينفع عند الإحساس بقوسفة القلوب وعند الغفلة، فإن الذي يحس بقوسفة في قلبه يقع منه إعراض، ويقع منه صدود وجفونه وغفلة عن ذكر الله تعالى وعن آياته وعن النظر في مخلوقاته، فتراءه مقبلاً على شهواته، مقبلاً على ملذاته، غالباً عن ما خلق له وعن ما أمر به، فمثل هذا يؤمر بأن يتفكر في نفسه وفي غيره {أَوَلَمْ يَتَعَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ } يعني: ينظر في نفسه في خلق نفسه وما فيها من عجائب الخلق، كيف أن ربه سبحانه هو الذي خلقه في أحسن تقويم قال تعالى: {مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ قَعْدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبَكَ } فإذا تفكرا في نفسه عرف قدرة من أوجده ومن كونه وخلقه عرف أنه الخالق العظيم.